

الحب وتجاربه

من قال إن كل شئ في هذه الدنيا يبقى على حاله ؟ إن التغير هو سمة الحياة ، وهو الذي يتحكم في كل علاقاتنا مع من نحب أو نصادق

كانت هذه الحقيقة هي التي خرج بها السيد نبيل بعد الأربعين سنة التي قضى معظمها في تجارب الحب الجميلة والمريرة في نفس الوقت . وفي كل مرة ، كان يقف لينظر كيف يندفع الحب في المهواء مثل الألعاب النارية ، ويلمع ويتألّم ، ثم ما يلبث أن يخبو وينطفئ ، وتتلاشى شراراته على الأرض !

كم مرة أحب السيد نبيل ؟ ثلاث مرات . وفي كل منها كان يعتقد أنه قد دخل قلعة حصينة ، لا يمكن لأى عاصفة أن تهزها . ومع ذلك كانت جدران القلعة تتداعى ، إما بفعل زلزال عنيف ، أو بـ مغادرة الحبيبة له ، أو هروبها هو منها .

كان حبه الأول عذريا ، يمتلىء بالأحلام ، ويصبح بالأغانى ، ويرسم على ستائر المشفق جنته الموعودة مع حببته القلب . وقد استمر هذا الحب طوال ست سنوات ، أى خلال المرحلتين الإعدادية والثانوية . فى كل صباح كان يوصلها إلى المدرسة . وفي الأجازة ، ينتظرها على ذاكرة الشارع حتى تطل عليه من الشرفة بابتسامتها المعذبة ، فتمنحه روح السعادة التي يعيش عليها بقية اليوم . لكنها عندما حصلت على الثانوية ، والتحقت بالجامعة تغيرت الأحوال . فقد قلت المقابلات ، ولم تعد تظهر فى الشرفة . وراح يسمع بعض المهمسات من أصدقائه عن تقدم خطيب لها . ولم يمض وقت طويل حتى أقيم المعرض ، وسافرت مع زوجها إلى مكان عمله بالإنكليزية .

التحق السيد نبيل بالجامعة ، وهو جريح القلب ، ممزق المؤاء . وقد ظل يقاوم من أجل النسيان مهملا دراسته وملبسه ، حتى التقى بحبيبته الثانية : أكثر جمالا وإشراقا ، وأرجح عقلا ، وأقدر على فهم الحياة . كانت هي التي تبرر اللقاءات بينهما ، وتحدهما بكل صراحة عن المستقبل الذي سوف يجمعهما أما الشقة فهي محجوزة لها من أبيها ، وكذلك الوظيفة . وما عليه إذن إلا أن يقدم شبكة بسيطة ويتم الزواج المسعيد . وهكذا مضت سنوات الدراسة في الجامعة ممزوجة بالحب . وكان المزملاء ينظرون إليهما بالكثير من المぎبة ، وبعضهم يقول : إنهم يشكلان معا ثنائيا مناسبا تماما ومنسجما .

ووفجأة وقع الزلزال الذي أسقط جدران القلعة . ظهر خطيب ذو مركز مرموق بوزارة الخارجية ، وطلبها من أهلها للزواج ، على أن يتم بسرعة وقد اضطرت كما قالت له للموافقة ، كما اضطر هو أن يتحلى بأخلاق المفروضية ويتمنى لها حياة سعيدة !

رسب السيد نبيل في نفس العام الجامعي فأعاده ، وبعد أن تخرج بصعوبة تم تعينه في قرية مغمورة بالصعيد. وهناك راح يجتر أحزانه ، ويعانى مما يحيط به من الفقر والجهل ، بالإضافة إلى لدغات البعوض ، ونقيق الضفادع الذى لا يهدأ طوال الليل . وقد ظل لعدة شهور منطويًا على نفسه ، ولما يكاد يتحدث مع أحد إما فى العمل ، أو ذات يوم ، فوجئ ببسيدة صغيرة السن تطرق بابه وتقدم له صينية عليها بعض أطباق الطعام ومغطاة بفوطة زرقاء . حاول أن يرفضها ، فأصرت وقالت له : أنا جارتكم فى البيت الملاصق . كان الطعام الذي ذكرناه بشهية ، لكنه راح يفكر فى رد جميلها أو على الأقل شكرها ، لكن كيف يحدث ذلك فى جو القرية الذى لا يقبل ابداً لقاء بين رجل وامرأة ؟!

ومع ذلك فقد ظل يفكر فيها ، ثم فى ذات ليلة بدون قمر ، قرر أن يجازف ويطرق بابها . فوجئ بها هي التى تفتح الباب وترحب به . دخل مسرعاً . وجد منزلًا مرتبًا بنظام ولا يشبه أبداً بيوت الريف . أحضرت لها الشاي وراحتا يتحدثان . هي رغم صغر سنها أرملة . توفى زوجها فى حادث ثأر بعد العرس بشهر واحد . أهل زوجها يلحون عليها فى المزاج من أخيه لكنها لا تحبه . هكذا قالتها بلا حرج تنوى أن تكمل تعليمها فى الجامعة ، وتتجه منه أن يساعدها فى اختيار الكلية الأسهل . كانت تتحدث بصدق بالغ وصراحة كاملة ، وكانت جميلة جداً وذات ناضجة .

عاد إلى بيته المكتوب فلم يجده كذلك . ظل طوال الليل يفكر فيها ، ويرى كل لنفسه أنها مناسبة له تماماً . لم يعد يتآلم من لدغات البعوض ، ولما يزعجه نقيق الضفادع . هي إذن المرأة التى ستتحول حياته من حزن إلى فرح ، وكأنه ويسأله إلى سعادة . غداً يطلب منها المزاج ، ويبحث معها إجراءاته .

فى اليوم资料 ، وأثناء فترة العمل ، زاره شخصان من كبار رجال القرية ، وطلبا منه أن يتفردا به لمدة خمس دقائق . خمس دقائق فقط . قال الأصغر سناً : بلغنا أنك تنوى المزاج من الآرملة جارتكم ، ولما تقل لنا كيف ؟ فنحن لا يخفى علينا دبيب النملة فى القرية . اسمع يا أستاذ .. الموضوع مغلق ، لأنك مرتبطة بقضايا ثأر لم تنته بعد . وأضاف الأكبر : ولو لمنزل نقدر يابنى خدماتك للبلد ، لما جئنا إليك وحدركم . أجاب السيد نبيل بانفعال : يعني هذا تهديد ! قال الأصغر : اعتبره كما تشاء ، وانصرفا .

المسئلة إذن جد . بل هى أخطر . فى نفس اليوم ، قدم طلبا للنقل إلى قرية أخرى بمحافظة أبعد . استجابت الإدارية لطلبه على الفور . وفي المقطار ، جلس بجوار الشبالك يتأمل خضراء الحقول وامتدادها ، وتساءل : لماذا لا تكون نفوس البشر بهذا الامتداد ؟ كما حاول أن يسترجع تجارب المحب المتى مر بها ، وكيف أنها لم تكن أكثر من ألعاب ذارية ، ترتفع وتبرق وتتأمل ، ثم ترتمى أخيرا على الأرض !